لقاء العظيمين

تخيل معي أنه قد اجتمع اليوم أهم رمزين من رموز الفكر العربي .. أو أهم رجلين من رجال السياسة في عالمنا العربي ..

أو دع المقترح يكون أكثر مرونة .. ولنتخيل اجتماعًا انعقد اليوم يضم أهم شخصيتين في العالم الإسلامي ..

برأيك .. وفي تقديرك: ما الموضوع الذي تتوقع أن يفتح علىٰ طاولة الاجتماع؟

هل تتوقع -مثلًا- أن يكون الموضوع عن الحرية؟ أم ربما يكون موضوع الاجتماع عن النهضة والحضارة والتنمية؟ أم عن البطالة والإسكان؟ أم عن تطورات الإعلام؟ أم أزمة الاقتصاد؟

أم عن ماذا يا ترىٰ؟

ما أعظم ملف يمكن أن يليق باجتماع أهم شخصيتين فكريتين، أو أهم شخصيتين سياسيتين في العالم العربي أو الإسلامي؟

حملق في ذهني هذا السؤال المتخيّل بينما كنت أقرأ خبرًا موثوقًا عن اجتماع أهم شخصيتين في تاريخ العالم .. وأدهشني جدًا الموضوع الذي دار الحوار بينهما علىٰ أساسه ..

ربما يعود السبب إلىٰ أننا تعودنا علىٰ نمط معين من الأجندات والقضايا في الاجتماعات الهامة .. ولذلك اندهشت من موضوع هذا اللقاء بين أعظم شخصيتين في تاريخ البشرية ..

أو ربما يعود الأمر إلىٰ ذوق فكري معين تعودنا عليه في ترتيب القضايا المرتبطة بالشأن العام .. فصارت هرمية الأولويات الفكرية الخفية في أذهاننا تتحكم في مفكرة اجتماعاتنا رفيعة المستوىٰ ..

المهم .. أنني متأكد أن مزاج القارئ المعاصر يتحرك في مسار غير المسار الذي وصل إلىٰ مستواه هذان العظيمان في تاريخ النوع الإنساني ..

وبشكل خاص: فَهْمُ هذين العظيمين للقضايا المصيرية والحاسمة التي تستحق أن تنفق فيها الاجتماعات وتبذل فيها الأوقات ..

علىٰ أية حال .. أشعر أن صديقي القارئ الآن متشوف للاطلاع علىٰ قصة هذا الاجتماع لأهم رجلين مشيا علىٰ هذا الكوكب ..

لا بأس .. دعني أنقل لك الآن هذا الخبر التاريخي عن

اللقاء عالي الطبقة الذي ضم أهم شخصيتين إطلاقًا في أرشيف بني آدم . .

عفوًا . . أحببت أيضًا أن أؤكد أن مكان اللقاء هو أيضًا مكان متفرد . . موقع استثنائي . . يليق بعظمة هاتين الشخصيتين . . فقد تم تحديد مكان الاجتماع في منزل لا يصله أكثر الناس . . بل هو موقع خاص لفئة معينة من القادة والمؤثرين . .

أما الشخصيتان محل اللقاء . . فبدهي طبعًا أن أهم وأعظم وأجلّ شخصيتين في تاريخ النوع الإنساني كله هما:

إبراهيم بن آزر بن ناحور . . ومحمد بن عبد الله بن عبد المطلب . . صلىٰ الله عليهما وآلهما وسلم.

وكون هذين هما أفضل رجلين خلقهما الله، هذه حقيقة معروفة عند المسلمين . . خذ مثلًا قول ابن تيمية: **(وأفضل الخلق: محمد ﷺ، ثم إبراهيم صلىٰ الله عليهما وسلم)**[1].

وقال ابن تيمية أيضًا: **(فصلٌ: وأفضل الأنبياء بعد محمد ﷺ إبراهيم الخليل)**[2].

حسنًا . . لا شك أن محمد وإبراهيم الخليلين -صلىٰ الله عليهما وآلهما وسلم- هما أعظم شخصين في تاريخ البشرية . .

---

(١) ابن تيمية، **اقتضاء الصراط المستقيم**، تحقيق د. ناصر العقل، مكتبة الرشد، ص(٢/ ٨٣٣).

(٢) ابن تيمية، **مجموع الفتاوىٰ**، ص(٤/ ٣١٧).

فلننتقل الآن إلىٰ جوهر الموضوع:

متىٰ التقيا؟ واين كان موقع الاجتماع؟ وما موضوع الاجتماع الذي دار الحوار بينهما علىٰ أساسه؟

التقىٰ محمد بإبراهيم -صلىٰ الله عليهما وسلم- لما أسري برسول الله ثم عرج به إلىٰ السماء السابعة.

حيث جاء في صحيح البخاري في قصة الإسراء والمعراج:

(ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت من هذا؟ قال: هذا إبراهيم)[1].

وجاء في بعض الروايات أن النبي ﷺ التقىٰ بإبراهيم، وإبراهيم مسند ظهره إلىٰ البيت المعمور، والله أعلم.

وأما الموضوع الذي دار بينهما .. والقضية التي فتحت في الاجتماع .. والرسالة الهامة التي أراد إبراهيم إيصالها لأمة محمد .. فقد رواها عن النبي ﷺ أربعة من الصحابة وهم ابن مسعود، وأبو أيوب الأنصاري، وعبد الله بن عمر، وابن عباس.

واستمع إلىٰ هذه الرواية التي رواها هؤلاء الصحابة عن قصة اجتماع أهم شخصيتين في العالم .. والموضوع الذي تركّز الاجتماع عليه:

(قال رسول الله ﷺ لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، فقال:

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٤٢).

يا محمد، أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)[١].

والحديث حسنه الترمذي عقب تخريجه له، وحسّنه ابن حجر[٢]، واستشهد بهذا الحديث ابن رجب وابن تيمية وابن القيم وغيرهم من أهل العلم كما سيأتي، ولبعض الأئمة المتقدمين كلام عن بعض طرقه[٣].

حسنًا .. لا يمكن أن يمر القارئ بهذا الحادثة في اجتماع محمد وإبراهيم الخليلين -صلىٰ الله عليهما وسلم- في السماء ليلة الإسراء إلا وتستولي عليه الدهشة من هذا الأمر الذي اهتم به إبراهيم الخليل وطلب من نبينا محمد -صلىٰ الله عليهما وسلم- أن يوصله لنا ..

بمجرد أن يقرأ المسلم قول أبينا إبراهيم (**يا محمد أقرئ أمتك مني السلام**) فإنه يشعر بشيء من حنين الانتماء والصلة ..

إنه أبونا إبراهيم مهتم بنا .. ويوصل سلامه لنا عبر محمد صلىٰ الله عليهما وسلم ..

إنه أبونا إبراهيم يسلم علينا .. وهو أبونا بنص القرآن ﴿مِّلَّةَ

---

(١) سنن الترمذي (٣٤٦٢)، مسند أحمد (٢٣٥٥٢)، وغيرهم.

(٢) ابن حجر، **نتائج الأفكار**، تحقيق حمدي السلفي، مكتبة ابن تيمية، ص(١/ ١٠١).

(٣) ابن أبي حاتم، **كتاب العلل**، أشرف علىٰ تحقيقه د. سعد الحميد، ص(٥/ ٣٠٩).

﴿أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] وفي معنىٰ الأبوة هاهنا أقوال ذكرها أهل التفسير . .

أيُّ إحساس بالأهمية والمكانة يشعر به المسلم وهو يقرأ أن إبراهيم خليل الله مهتم بالسلام عليه؟!

وثمة بعد آخر في منزلة هذه الوصية وهي أن إبراهيم الخليل ﷺ رجلٌ ارتحل الآن إلىٰ ربه . . وهو الآن أخبر ما يكون بأنفع شيء لمن لم يمت بعد . .

فتخيل أن رجلًا ذهب إلىٰ الله، ثم يرسل لك وصية بعد أن انتقل عن الدنيا؟ فكيف ستكون أهمية وصيته؟

فهذا إبراهيم أعلم الناس بالله بعد نبينا يرسل لنا وصيةً بعد موته وارتحاله عن هذه الدنيا . . إنها وصية قادمة من رجل سبقنا في الرحلة إلىٰ المستقبل الأبدي . . فكأنها وصية قادمة من المستقبل الذي سنؤول إليه . .

وماذا كانت هذه الوصية . . إنها الوصية بأمور تبني لك موقعًا في الجنة:

(يا محمد، أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر).

فإبراهيم الآن يتحدث عن الجنة حديث من غادر الدنيا . . ويخبر أن الجنة أرضها طيبة مباركة . . ومياهها عذبة حلوة . . .

وأن الله خلق فيها مساحات مستوية لا نبات فيها، فهي قيعان، لكي يغرس المؤمن فيها أشجاره بقوله: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر) . .

هذا إبراهيم الخليل الذي آل إلىٰ ربه يريد من محمد صلىٰ الله عليهما وسلم أن يخبرنا نحن بهذه المعلومة . .

إبراهيم يريد منا أن نستثمر الفرصة طالما أننا ما زلنا في هذه الدنيا فنستكثر من الغرس في الجنة قبل أن نقدم علىٰ الله!

تخيل أنك تقول الآن «سبحان الله» . . فتغرس لك شجرة في جنات عدن؟!

وتخيل أنك تدلّ صديقًا أو قريبًا علىٰ فضل «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» . . فكلما قالها هذا الصديق أو القريب، غُرِست له شجرة في الجنة، وغُرست لك مثلها، كما في صحيح مسلم **(من دل علىٰ خير فله مثل أجر فاعله)**[1].

فربما كنت نائمًا أو تتناول طعامك أو منهمكًا في عمل . . والله يغرس لك في الجنة بسبب أقوامٍ دللتهم وذكّرتهم فتفطنوا للذكر . .

وقد بوّب علىٰ هذا الحديث العظيم الإمام ابن القيم في منظومته المتلاطمة (الكافية الشافية) المشهورة بالنونية فقال (فصلٌ

---

(١) صحيح مسلم (١٨٩٣).

في أن الجنة قيعان، وأن غراسها الكلام الطيب والعمل الصالح)، ونظم فيها ابن القيم تحت هذا الفصل أبياتًا مستمدة من هذا الحديث فقال:

(أو ما سمعت بأنها القيعان فاغْـ
رِس ما تشاء بذا الزمان الفاني
وغراسها التسبيح، والتكبير، والتـ
حميد، والتوحيدُ للرحمنِ
تبًّا لتاركِ غرْسِه ماذا الذي
قد فاته من مدة الإمكان
يا من يقر بذا ولا يسعىٰ له
بالله قل لي كيف يجتمعان؟
أرأيت لو عطلت أرضك من غرا
سٍ ما الذي تجني من البستان؟)[1]

وجعل ابن القيم هذا الحديث دليلًا لأحد فوائد الذكر . . كما يقول ابن القيم في كتابه الوابل الصيب في فوائد الذكر: **(الفائدة الثانية والثلاثون: أن الذكر غراس الجنة)**[2].

ومن أطرف النظرات والتأملات في هذا الحديث العجيب أن

---

(١) ابن القيم، **الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية**، تحقيق عبد الله العمير، دار ابن خزيمة، ص(٣٩٥)

(٢) ابن القيم، **الوابل الصيب**، تحقيق عبد الرحمن قائد، نشرة مجمع الفقه، ص(١٠١).

الإمام النووي (ت٦٧٦هـ) اعتبر أنه صارت لأهل الحديث رواية متصلة السند إلىٰ النبي إبراهيم .. فإن أهل الحديث يروون هذا الحديث عن الصحابة، والصحابة يروونه عن نبينا محمد ﷺ، ومحمد يرويه عن إبراهيم الخليل!

كما يعبّر النووي عن هذه النظرة بقوله:

(وقد منّ الله الكريم علينا وجعل لنا رواية متصلة، وسببًا متعلقًا بخليله إبراهيم -عليه السلام- كما منّ علينا بذلك في حبيبه وخليله وصفيّه محمد ﷺ)[1].

ثم ساق النووي بإسناده هذا الحديث السابق مرورًا بالترمذي.

والحقيقة أن التركيز في النظر إلىٰ هذا المعطىٰ، أي كون هذه الوصية من خليل الله إبراهيم لم يكن غائبًا عن كثير من أهل العلم .. حتىٰ أن الإمام ابن رجب يقول:

(وصلت إليكم معشر الأمة رسالةٌ من أبيكم إبراهيم، مع نبيكم محمد -عليهما السلام- قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي إبراهيم فقال: يا محمد أقرئ أمتك السلام وأخبرهم: أن الجنة عذبة الماء، طيبة التربة، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»)[2].

فلعلك قد لاحظت أن النووي وابن رجب سلّطا الانتباه علىٰ

---

(١) النووي، **تهذيب الأسماء واللغات**، إدارة الطباعة المنيرية، ص(١/ ١٠٠).

(٢) ابن رجب، **لطائف المعارف**، تحقيق ياسين السواس، دار ابن كثير، ص(١٢٠).

كون هذه الرسالة والوصية قادمةٌ إلينا من أبينا إبراهيم الخليل، وينقلها عنه محمد صلىٰ الله عليهما وسلم .. والمستهدف في هذه الوصية .. والمرسل إليه في هذه الرسالة هو نحن .. أيُّ اهتمام بنا بذله هذان النبيّان الكريمان علىٰ الله ..

هل تتوقع لو اجتمع اليوم اثنان من المفكرين العرب أن يكون اجتماعهم معنيًا بقضية (ذكر الله) كما اهتم بها أعظم رجلين في تاريخ البشرية في اجتماعهما في السماء السابعة؟!

لا أظن ذلك .. ويبهجني أن أكون مخطئًا.

النهضة والتقدم والتطور والرقي في ميزان الأنبياء تختلف كثيرًا عن الموازين المادية المعاصرة ..

صفاء الأنبجانية

طوال هذه السنوات المادية المكفهرة التي دهستنا، ما تزحزح عن مخيلتي إلىٰ هذه اللحظة صورة «الشايب» أبي عايض رحمه الله وهو يجر خطاه المثقلة بأعباء الكهولة .. كأنما يجر عربة الزمن وراءه .. ويشدني حين أكون وراءه .. أقهر خطوات الصبي لكي يتقدمني .. ويتلألأ علىٰ كتف فروته الصفراء المتهدلة رذاذ الليالي الشاتية .. ليشهد صلاة الفجر مع الجماعة في مسجد الحي .. يختلج رنين المطر فوق المظلات الحديدية التي قوّست ظهورها علىٰ جانبي الطريق .. بصوت تسابيحه المتهدجة ..

في مثل هذه البيئة التي تولي «صلاة الجماعة» أهمية قصوىٰ ترعرعتُ .. وذلك كان نمط الحضانة الدينية التي رضع فيها وعي الصبي معنىٰ الأولويات .. وحَبَتْ فيها طفولة التعرُّفات أولىٰ خطواتها المتعثرة ..

لم أكن أعدم في كل لحظات اليوم من يقرص أذني، بمناسبة وبلا مناسبة، تأكيدًا علىٰ صلاة الجماعة .. حتىٰ انطبع في ذهني

ما يشبه الترادف اللغوي بين الصلاة وصلاة الجماعة .. بحيث يثير ذكر أحدهما في الذهن صورة الآخر .. ففي كل الأحوال تعني مفردة «الصلاة» صورة المصطفين في المسجد فقط ..

وحين حصلت أول فرصة تلاقٍ وتعرف بكتب الفقه -أو بشكل أدق شروحات كتب أحاديث الأحكام- ورأيت براهين وجوب صلاة الجماعة أدركت كم كانت العناية الإلهية تحوط جيلًا نشأ علىٰ الأكمل ..

كل هذا لم يثر تساؤلًا .. لأن التساؤلات لا تنشأ في الفراغ .. وليست التساؤلات أثيرًا معلقًا في الهواء .. وإنما ينثال طحين التساؤلات حين ندير رحىٰ المقارنات والتقابلات ..

في تلك الأيام كان يصلي معنا في المسجد جاليات آسيوية متنوعة .. لم يكن غالبهم بنفس حفاوة أهل الحي بصلاة الجماعة .. لكنهم كانوا يختلفون عنا بقسمات أخرىٰ أضرمت تساؤلاتي ..

بكل صدق ومباشرة: لقد كانوا أكثر منا سكونًا في صلاتهم وأكثر إجلالًا لهيئات الصلاة ..

وما أكثر ما فكّرت في هذه المقارنة ..

وفي تلك الأيام .. في أجواء الأميّة الفقهية .. نشط العلماء والدعاة في إثارة الاهتمام بموضوع «أهمية طلب العلم الشرعي» .. وتنافس فتيان كان همهم ركز الطوب مرمىٰ كرة في الشوارع الفسيحة إلىٰ ابتدار السواري يدونون الفوائد تحت الأشياخ .. وما

أزال أتذكر والدي وأعمامي وهم في مجلس المنزل وكنت صغيرًا أدير القهوة بينهم ويقرع سمعي تعجبهم من الشباب الجدد اللذين نزلوا من المدرجات بينما صعدت ثيابهم إلىٰ أنصاف الساقين . .

في مسجد آخر قريب كان أحد علماء الحديث يشرح سنن الترمذي . . وكان إذا سئل فاندلق يتلاطم بالأسانيد ودقائق العلل تطامنت أمامه مفارق الأقران حتىٰ يظن الظان أنها مسألة هو حديث عهد بحفظها . . وما كان شيخنا حديث عهد بها ولكنها كمائن النفوس تتطلب المغامز لتضمد جراحها النرجسية وتقلص الفارق بينها وبين تميز الآخرين . . فاستحوذ علي هذا الشيخ وغشيت جلالته بصري . . وخرجت من مكتبة المؤيد مقتنيًا سنن الترمذي بتحقيق أحمد شاكر باتجاه مسجده . . وانخرطت في طقوس هذا الدرس . . تتجاوب جنبات المسجد بذكر بندار وقتيبة بن سعيد ومحمود بن غيلان وأحمد بن منيع ونحوهم من أشياخ الترمذي الذين أكثر عنهم في جامعه . . ولأسماء رجال الحديث إذا استرسلتْ كُناهم وألقابهم مفصولة بـ«حدثنا وأخبرنا» حلاوة في الأسماع يعرفها أهل الشأن . . والشيخ يقول عبارته التي اعتدناها «هذا الرجل مر معنا مرارًا وتكرارًا» . . وحديث فلان ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام . . ولشيخنا ولعٌ بالتقاسيم في أحوال الرواة . . وهكذا حتىٰ نصل لجملته المألوفة في خاتمة كل درس «لعلنا نتوقف عند هنا» . .

وقبل بداية كل درس كان الشيخ يصلي النافلة البعدية ركعتين

في مؤخرة المسجد .. فكنت أدع كل ما بيدي ويشخص بصري أتأمل صلاته .. وقد شهدت شيئًا ما عهدته من قبل .. في سكون يديه وهما يرتفعان للتكبير .. وسكونه في انتقالات الصلاة .. وإطالته الركوع الذي يقصره الناس ..

كنت أنظر له وليس بين لحيته المطأطئة ويده المقبوضة علىٰ صدره إلا صوت تراتيل قرآن يهمس به .. ومن أعجب مشاهد المصلين الخاشعين ما يغزو النفوس من الشعور بالهالة الإيمانية التي تطوقهم .. حتىٰ يعتري الخجل من بجانبهم من الحديث ورفع الصوت .. كأنما ينشر الخشوع في المكان رسالة استنصات ..

تضخمت المقارنات في داخلي .. وعاد السؤال مجددًا .. هل ما أرىٰ من حولي في مجتمعي القريب هو الوضع الطبيعي؟ هل كثرة الحركة في الصلاة والانتقالات بلا سكينة التي اعتدت رؤيتها في كثير من المصلين من حولي حتىٰ انطبعت بها لا شعوريًا هي الصورة المألوفة؟ هل نحن في الطريق الخاطئ ونحن لم نستشعر أصلًا أن ثمة قصور؟

بعض المصلين يسحب شماغه إلىٰ اليمين ليعتدل المرزام، ثم يشعر أنه غير متوازن فيسحبه لليسار مرةً أخرىٰ .. ومصلٍّ آخر يزيح كمّه عن ساعته اليدوية في معصمه ويعيد ضبط عقاربها علىٰ ساعة الحائط التي أمامه ويراوح النظر بين الساعتين حتىٰ تتطابق العقارب .. وآخر إذا سجد تلعب أصابعه علىٰ الموكيت يرسم دوائر ويمحوها .. ومصلٍ بجانبك يتحول إلىٰ حديقة غنّاء تصفر عصافير

فمه يصون بلسانه بقايا الطعام ويستمتع بالأصوات التي يسحبها بين فجوات أسنانه . .

أما الانتقالات بين أركان الصلاة فكثير من الناس يهجم بحركات شعثاء . . لا يداري النزول والقيام بسكينة وإخبات . .

هذه المظاهر مجرد أمثلة من جملة مظاهر كثيرة صرت أدقق فيها بعد أن لم أكن كذلك . . بل لقد كنت أراها مظاهر طبيعية وليست موضع تدقيق واستشكال أصلًا . . بل وبكل شفافية مع القارئ لقد اكتسبت -للأسف- كثيرًا من هذه التصرفات وانطبعت في سلوكي، ثم جاهدت نفسي لاحقًا علىٰ قطع كثيرٍ منها، وما زلت أكابد كشط نتوءات العادات . . وعجزت عن قطعها البتّة . .

ومع هذه الرياح العلمية التي هبّت علينا صعد نجم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم بصورة مجتمعية غير مسبوقة . . حتىٰ صار فتيان الدعوة تلهج ألسنتهم بقولهم اختار ابن تيمية كذا، وقال ابن القيم في الجواب الكافي كذا، ولعل ذلك بعض مما صدّق الله به حدس الشيخ شهاب الدين ابن مُرِّي . . فقد كان رحمه الله متأثرًا ببعض خلل المتصوفة . . ثم انفتح له باب الحق بعد اقترابه من ابن تيمية . . فشغف بشيخ الإسلام . . وصار في مدينة القاهرة يصدع بالحق في مسائل الاستغاثة والتوسل والزيارة . . فابتلي كشيخه وسُجِن وجُلِد ثم نُفِي من مصر إلىٰ الشام . . ولما مات شيخه ابن تيمية معتقلًا في القلعة أرسل التلميذ الموجوع بفقد شيخه يوصي بقية إخوانه وزملائه بالاهتمام بكتب شيخهم ابن

تيمية ونسخها وأطلق قَسَمَه التاريخي وقال **(فلا تيأسوا من قبول القلوب القريبة والبعيدة لكلام شيخنا . .، ووالله إن شاء الله ليقيمن الله سبحانه لنصر هذا الكلام ونشره وتدوينه وتفهمه، واستخراج مقاصده واستحسان عجائبه وغرائبه، رجالا هم إلىٰ الآن في أصلاب آبائهم)**[١].

ومن رأىٰ تسلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب بذخيرة ابن تيمية في حرب الشركيات والبدع حتىٰ صنع مفصلًا تاريخيًا في مسيرة الأمة، ثم إيقاظ الله لابن قاسم سائحًا في الأرض يلملم فتاوىٰ الشيخ من قماطر المكتبات، متزامنًا مع انبعاث اليقظة العلمية السلفية الحديثة، ثم تزاحم الرسائل الأكاديمية والبحوث العلمية تستقي من علم الشيخ، من رأىٰ ذلك كله عظمت ثقته بأن الله أكرم ابن مُرِّي وأوقع له مآل قسمه.

والمراد أن من عادة المحب للعلم أن تتوق نفسه لمعرفة ترجمة وسيرة الرموز المركزيين في أي بيئة معرفية . . ولذلك تتبعت كل ما وقع بيدي من تراجم لشيخ الإسلام ابن تيمية، التراجم المفردة والضمنية، وما وجدت إلىٰ هذه الساعة أعذب من ترجمة البزار لشيخه ابن تيمية . . ففيها وقائع وشهادات حية رواها البزار كأنك تجلس مع الشيخ . . وكم طالعت هذه الترجمة في السنة عدة مرات . . وما رويت منها بعد . .

---

(١) ابن مري، قطعة من مكتوب الشيخ الزاهد شهاب الدين بن مري، تحقيق محمد الشيباني، مكتبة ابن تيمية، ١٤٠٩هـ، ص(١٨).

في أحد تلك المشاهد كان الشيخ البزار يصوّر صلاة ابن تيمية .. وحين تحدّث عن طريقة تكبيره رسمها بعبارة تنقطع لها الأنفاس .. يقول البزار عن شيخه ابن تيمية:

(وكان إذا أحرم بالصلاة يكاد يخلع القلوب لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام، فإذا دخل في الصلاة ترتعد أعضاؤه حتىٰ يميد يمنة ويسرة)[١].

لا أستطيع أن أتذكر كم مرةً وقفت أمام هذا النص وأخذت أتخيل هذه «التكبيرة» التي تنحني لها قلوب المؤمنين مما فيها من الخشوع والسكينة .. ولا أحصي كم مرةً طلبت التعليق في مجلس من المجالس وأخذت أحكي مشاعري وأنا أقرأ هذا النص للبزار عن «تكبيرة» ابن تيمية ..

وعاد هذا المشهد من صلاة ابن تيمية يقلب في ذهني دفتر الذكريات ويفتح صفحة تلك الإشكالية التي كنت أفكر فيها .. وهي التساؤل عن مدىٰ صحة ما أراه في نفسي وفي كثير من المصلين من حولي من اعتياد كثرة الحركة في الصلاة، والوقوف المتصدع فيه، والانتقالات المشتتة بين الأركان ..

وكان للذهبي تراجم كثيرة لابن تيمية متناثرة في كتبه، ولكن دوّن الذهبي ترجمة موسّعة لابن تيمية، لم نكن نجدها بين أيدينا في كتبه، وإنما نرىٰ المؤرخين في عصر الذهبي وبعده ينقلون عنها، ثم

---

(١) البزار، **الأعلام العلية**، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، ص(٣٧).

طُبعت هذه الرسالة عام ١٤٢٥هـ، ووجدت فيها نصًا للذهبي يتحدث فيه عن ابن تيمية إذا صلىٰ بالناس إمامًا، يقول فيها الذهبي: **(ويصلي بالناس صلاة لا يكون أطول من ركوعها وسجودها)**[١].

وأما ابن القيم فأظن أجمع من كتب عن تفاصيل طلبه للعلم القاضي صلاح الدين الصفدي، ولكن قرينه الحافظ ابن كثير له في وصف أحوال ابن القيم عبارات مبهرة، فبالله عليك تذكر ذلك العصر وما فيه من العلماء والعبّاد والمتنسكين والمجاهدين، ثم طالع قول ابن كثير عن ابن القيم:

(وكنت من أصحب الناس له، وأحب الناس إليه، ولا أعرف من أهل العلم في زماننا أكثر عبادة منه، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جدا، ويمد ركوعها وسجودها، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان فلا يرجع، ولا ينزع عن ذلك، رحمه الله)[٢].

حين قرأت هذا النص لأول مرة رحت أقارنه جذلًا بكلام ابن القيم نفسه وهو يشرح أحاسيس المصلي الخاشع في رسالته المشهورة «الصلاة وحكم تاركها»، كان ابن القيم يسترسل في تصوير كيف يعيش المصلي كل هيئة وذكر من أذكار الصلاة لحظة

---

(١) الذهبي، ترجمة ابن تيمية، منشور ضمن: من تراث ابن تيمية، تحقيق حسين عكاشة، دار الفاروق، ص(٢٤٤).

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق د.عبد الله التركي، دار هجر، ص(١٨/ ٥٢٣).

لحظة، حيث يقول ابن الفيم:

(فإنه إذا انتصب قائمًا بين يدي الرب شاهد بقلبه قيوميته، وإذا قال «الله أكبر» شاهد كبرياءه، وإذا قال «سبحانك اللهم وبحمدك تبارك اسمك وتعالىٰ جدك ولا إله غيرك» شاهد بقلبه ربًا منزهًا عن كل عيب، محمودًا بكل حمد، وإذا قال «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقد آوىٰ إلىٰ ركنه الشديد واعتصم بحوله وقوته من عدوه الذي يريد أن يقطعه عن ربه، فإذا قال ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ وقف هنيهة يسيرة ينتظر جواب ربه له بقوله «حمدني عبدي»، فإذا قال . . .)[١].

وهكذا استمر ابن القيم في استعراض كل هيئة من هيئات من الصلاة، وكل ذكر من أذكارها، منذ القيام وتكبيرة الإحرام إلىٰ التسليم، يشرح كيف يعيش المصلي معناه بقلبه وروحه، واستغرق هذا زهاء عشر صفحات، ثم ختم ذلك بقوله:

(فالصلاة وضعت علىٰ هذا النحو، وهذا الترتيب، لا يمكن أن يحصل ما ذكرناه من مقاصدها التي هي جزء يسير من قدرها وحقيقتها، إلا مع الإكمال والإتمام والتمهل الذي كان رسول الله ﷺ يفعله)[٢].

وأنا أقرأ هذا الموضع الذي هو من عيون نصوص ابن القيم،

---

(١) ابن القيم، **الصلاة وحكم تاركها**، تحقيق المنشاوي، مكتبة الإيمان، ص(١١١).

(٢) المصدر السابق، ص(١٢٢).

رأيت فعلًا كيف تتحول هيئات الصلاة من حركة جسدية إلىٰ هالة عبودية .. وكيف تتحول أذكار الصلاة من ألفاظ لغوية إلىٰ معانٍ تنتشل المصلي للملكوت الأعلىٰ ..

ولكن لماذا كنت أقرأ كلام ابن كثير عن وصف صلاة ابن القيم حين قال عنه «**له طريقة في الصلاة يطيلها جدا، ويمد ركوعها وسجودها، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان فلا يرجع، ولا ينزع عن ذلك**» ثم أقارن ذلك بوصف ابن القيم لكيف يعيش المصلي الصلاة؟

هل كنت تلك الأيام في غرارة الشباب أتوهم اكتشاف سر ما استغربه ابن كثير وعُذّال ابن القيم؟ وأن هذا الرجل الذي لاموه في طول صلاته ما علموا أنه شرح في موضع آخر كيف يحيا المصلي الصلاة؟

أم كنت يا ترىٰ أوقف نفسي علىٰ الفارق بيننا وبين أئمة العلم والإيمان .. هذا ابن القيم الذي كرّس عشر صفحات لشرح كيف يعيش المصلي هيئات وأذكار الصلاة .. كرس مقابلها ستين سنة من عمره يشرح عمليًا كيف يصلي المصلي ..

إيهٍ يا ابن القيم .. أنت تعظنا بربع العشر من عملك .. ونحن نعظ الناس بقروض وديون .. فرصيد عملنا دون نفقات مواعظنا بكثير .. ولذلك يبارك الله في الزكاة .. ولا يصلي رسول الله علىٰ المدين ..

هذه المقارنات، وخصوصًا وصف البزار لصلاة ابن تيمية،

ووصف ابن كثير لصلاة ابن القيم، قادتني للاهتمام بالموضوع وتتبعه في مظانّه من كتب السلوك وكتب التراجم، فلفت انتباهي أن أهل العلم إذا طرقوا هذا الموضوع اهتمّوا بذكر صلاة «ابن الزبير»، ولم أكن في البداية مستوعبًا خلفيات هذه العناية، فينقلون من أخبار صلاة ابن الزبير مشاهدات علماء جيله له، ومن نماذج ذلك:

قال التابعي الجليل المحدِّث زاهد البصرة أبو محمد ثابت البناني (ت١٢٣هـ) (**كنت أمر بابن الزبير، وهو يصلي خلف المقام، كأنه خشبة منصوبة لا يتحرك**)[1].

وقال التابعي الجليل إمام التفسير مجاهد بن جبر: (**كان ابن الزبير إذا قام في الصلاة كأنه عودٌ، من الخشوع**)[2].

وفي رصدٍ آخر له يقول مجاهد نفسه يصف شدة سكون ابن الزبير في الصلاة: (**كان ابن الزبير أحسن الناس صلاة، كأنه خرقة**)[3].

وقال التابعي الجليل مفتي المناسك عطاء ابن أبي رباح: (**كان ابن الزبير إذا صلىٰ كأنه كعب راتب**)[4]، أي منتصب ثابت.

وأبو مهَل عروة بن قشير، من صغار التابعين وثّقه أبو زرعة وغيره، كان يصلي خلف ابن الزبير مأمومًا، ويرصد صلاته،

---

(١) البغوي، **معجم الصحابة**، تحقيق محمد الأمين الجكني، مكتبة دار البيان، ص(٣/ ٥١٧).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق محمد عوامة، دار القبلة، حديث رقم (٧٣٢٢).

(٣) الفاكهي، **أخبار مكة**، تحقيق ابن دهيش، دار خضر، ص(٢/ ٣١٨).

(٤) مصنف عبد الرزاق (٣٣٠٤).

فيقول: **(كان ابن الزبير يؤمنا عند المقام، فإذا فرغ من المكتوبة صلىٰ تحت الميزاب، قائمًا ما يحرك منه شيء)**[١].

وحين حاصر الحجاج بن يوسف مكة ونصب المنجنيق علىٰ جبل أبي قبيس عام (٧٢هـ) وأخذ يرمي ابن الزبير وكتيبته بالحجارة والنفاطات، فكسر وأحرق، ومع ذلك كله فقد كان ابن الزبير يصف قدميه خلف المقام يصلي، فإذا دخل في صلاته ذهل عما حوله، وقد كان هذا مشهدًا لفت التابعين الآخذين عن ابن الزبير، ومن ذلك ما ذكره التابعي الجهبذ العابد الذي كان يسمىٰ سيد القراء وهو محمد بن المنكدر، حيث يقول: **(لو رأيت ابن الزبير وهو يصلي لقلت غصن شجرة يصفقها الريح، وإن المنجنيق ليقع ههنا وههنا ما يبالي)**[٢].

هذه بعض الأخبار التي تناقلها علماء السلوك ومدونوا التراجم عن صلاة ابن الزبير، ودهشة أئمة التابعين منها، وبكل صراحة فإنني حين قرأت هذه الأخبار لأول مرة ورأيت عناية أهل العلم بذكر صلاة ابن الزبير واستثنائية سكونه وإخباته فيها تعاملت مع الأمر علىٰ بداهته الأولية الظاهرة، فكنت أظن هذه الأخبار مجرد مشاهدات مسجلة عن شخصية ابن الزبير استدعاها الانبهار بصلاته، كآحاد الآخبار وأعيان الوقائع، ولم ينكشف لي أي خيوط اتصال تربط هذه الأخبار باعتبار أشمل . .

---

(١) ابن سعد، **كتاب الطبقات الكبير**، تحقيق د. علي عمر، مكتبة الخانجي، ص(٦/ ٤٨٢).

(٢) أبو نعيم، **حلية الأولياء**، تحقيق سامي جاهين، دار الحديث، ص(١/ ٤٠٦).

ثم اتضح لي أن أئمة التابعين وأتباعهم في ذاك العصر المشرق كانوا يرون صلاة ابن الزبير جوهرة في قلادة أشمل .. وأنهم ينقلونها لا باعتبارها قصة منفردة، بل باعتبارها مشهدًا متصلًا بحلقات قبله وبعده ..

صحيح أنه اشتهر أن الأسانيد رواحل تحمل الأحاديث والأقوال الشريفة .. ولكن ليس هذا كل شيء .. فالمشهد العملي نفسه يقتبسه لاحق عن سابق .. ويُنقل المشهد العملي نفسه بكل صمته وهالته بالأسانيد أيضًا .. كم كنت مأخوذًا بالعجب حين اكتشفت أن صلاة ابن الزبير هي أحد اللحظات في مسلسل الإخبات والخشوع .. وقد جلّىٰ أهل العلم ذلك، فقد قال الإمام أحمد في مسنده:

(حدثنا عبد الرزاق قال: أهل مكة يقولون: «أخذ ابن جريج الصلاة من عطاء، وأخذها عطاء من ابن الزبير، وأخذها ابن الزبير من أبي بكر، وأخذها أبو بكر من النبي ﷺ». قال عبد الرزاق: ما رأيت أحدًا أحسن صلاة من ابن جريج)[1].

لا أدري أي جماليات هذا الإسناد تستحق أن يُستفتح بها؟!

وكم بقيت أفكر كيف يا ترىٰ تجسّد هذا الإسناد في الواقع؟

إنهم لا يروون عن بعضهم حديثًا قوليًا .. ولا يحكون عن بعضهم صفة فعلية معينة .. إنه سلوك يستنشقه التلميذ من محراب

---

(١) مسند الإمام أحمد (٧٣).